

التذوق الفني للأدب (دراسة تطبيقية)

قبل ان نتعرف على عملية التذوق الفني للادب نتساءل في البداية عن ماهية الادب ؟ . وحين ندخل في اطار التقنين والتعريف تسدو العملية صعبة معقدة - وان بدت بالامثلة والتعرف العيني سهلة بسيطة - ذلك انه في اطار الدراسات والعلاقات الانسانية مفاهيم ومواضيع ، سهل التعرف عليها ويصعب تعريفها ، بمعنى انه يمكن بسهولة التعرف على (الادب) من تذكر بعض انواعه واشكاله ابتداء من : الاسطورة والملحمة وهرروا بالسر والشمع والسيرة والقصة والرواية وانتهاء بالموال والمثل الشعبيين .

كل هذه الانواع (على الرغم من تعدد اشكالها وبطورها ، وخضوع بعضها لتطور اشبه بعملية النشوء والارتقاء كما حددها علميا داروين) ادب .. نص لغوي يمثل تجربة انسانية . ولنتأمل هذه الحقيقة في ضوء نصين بينهما في الفكر والزمان والمكان حدود وفواصل لا يمكن تصورها ، بل ان الاول فيهما (موال) شعبي مصري مجهول القائل . والثاني رواية للكاتب الامريكي « ارنست هنجواي » (١٨٩٩ - ١٩٦١ م بعنوان : « العجوز والبحر ») (١٩٥٤ م) .

اما الموال : فيستظف فيه حبيب محبوبه حتى يرق له ، ويتسم في وجهه حتى لا « يدبل » كالورد . وهو مخلص في حبه موحد في محبوبه يقسم له بالنبي - في روة عاطفية بشع منها ايمان صوفي - انه لن ينظر لغيره ولو كان « قمرًا » :

سابق عليك النبي ان كنت باقيني
تضحك بسن الرضا ساعة تلافيني
ياللي انا الورد - يا حلو - وانت الميئة ترويني
ان غبت دبلتني وان جيت بنحييني
وسر تربة نبي احمد شهر ديني
ان كان غيرك قمر ما تنظره عيني (١) .

التعبير الفني هنا - على بساطته وشعبيته - يمثل موقفا انسانيا يهز الوجدان ويستثير المشاعر .

وتمثل رواية « هنجواي » موقفا انسانيا من زاوية اخرى ، اذ تصور صراع عجوز مع الانواء وقسوة الطبيعة ، اصطاد سمكة بعد طول جوع وتعب ، ولكنه يعود بعد هذا مهدود الحيل والعزيمة ، اكثر من هذا ان السمكة التي صارع من اجلها لم يعد منها الا بالراس وعظم الظهر فقط ، على الرغم من هذا نحس ان الرواية تقول معانسي

انسانية لا حد لها ، من ذلك حديث العجوز للسمكة او لما بقي منها :

« يا نصف السمكة .. يا من كنت سمكة ، انني آسف اذ اوغلت في البحر . لقد حطمتك وحطمت نفسي ، ولكننا صرنا قروشا كثيرة .. انت وأنا .. الا قولي : كم سمكة قتلت في حياتك ايتها السمكة العجوز ؟ ان هذا الرمح في رافك لم يخلق عبثا (٢) » .

وتنتهي الرواية برقدة العجوز خائرا على الشاطئ بينما الغلام الصغير - رمز الامل المتجدد - قائم الى جواره . ونلاحظ ان (القيمة) الفكرية تعكس موقفا انسانيا عاما - على الرغم من احدثه البطل الذي يعد رمزا لكفاح الانسان ضد قوى القبر المحيطة به .

وتمثل قدرة الانسان الدائمة على التحدي والتمسك بالامل ، اذ « ان التعلق بالاهل .. شيء اجمل من ان يتحقق . » بعد هذا نستطيع القول :

ان الادب فن يقدم تجربة - تفصح عن موقف انساني - ويكون حدوده (الادب) على قدر قربه من حياة البشر والتحامه بوجدانهم ، وتعبيره عما يمكن ان يمسه ذواتهم الانسانية . على ان ما ينبغي ان نلاحظه بالنسبة للادب انه يقدم المعرفة او التجربة الانسانية بوسيلة خاصة هي (اللغة) بعد ان ينقلها الفنان من بعدها الاشاري التقريري الى بعد اعق لتعبر بالصورة والرمز .

بعد ان تتم للادب عملية (الخلق) يظل دوما في حاجة الى متذوق واع (يعيد) في ذهنه بناء التجربة الادبية ويكتشف ابعادها . بهذا الجدل الفني المتبادل - يحيا الادب ويخلد ويصبح ترانا يثري الفكر ويعمق احساس البشر بقواتهم وواقعهم وحياتهم . وما نتساءل عنه الان هو : ما الخطوات التي ينبغي ان يقوم بها (المتلقي) حتى يستطيع ان يعيد تشكيل التجربة الادبية ، ويكشف لنفسه او للآخرين ابعادها الفكرية والفنية ؟

سنحاول ان نجيب عن هذا التساؤل من خلال مناقشة قصيدة :
غريب عن الخليج

للشاعر العراقي : بدر شاكر السياب (٣)

اول ما ينبغي عمله - هنا - هو محاولة التعرف على (الاطار الاجتماعي) الذي كتب الشاعر في ظله القصيدة ، حتى يساعدنا ذلك على تبصر موقف الشاعر وادراك عمق التجربة التي يقدمها . عاصر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤ م) في شبابه مرحلة سيئة من تاريخ وطنه

المثل بسلبيات الاحتلال الانجليزي والحكومات شبه العميلة ، وما صاحب ذلك من انحطاط اجتماعي واختلال في العلاقات الانسانية .
من هنا كان وعيه بان تكون الكلمة لديه (معبرا) للدفاع عن وطنه وشعبه ، لذلك فادوم الحكام فلم يجد وسيلة الا الهرب الى الكويت حيث عمل مدرسا . وعلى الرغم من هذه (الغربة) المادية ظلت روحه تحوم حول الوطن ونفسه مؤرقة بهومته ، لذلك نجده يصرخ في القصيدة قائلا :

واحترته متى انام
فاحس ان على الوسادة
من ليك الصيغي طلا فيه عطرك يا عراق
بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة
غثيت تربتك الحبيبة
وحملتها .. فانا المسبح يجز في المنفى صليبه

هكذا نصل الى انه بدون معرفة الاطار الاجتماعي المسبب لغربة الشاعر لا يتم المتدق - فيما نرى - الوعي الكامل بابعاد النص الفكرية والشعورية . على ان ما ينبغي التحذير منه هنا - ان الفن ليس انعكاسا (ميكانيكيا) للواقع ، او رسدا (آليا) له . ان الفن نشاط انساني ، وحين يبدعه الاديب فانه يكون على درجة كبيرة من الوعي ، ويقوم بعمليات لا حصر لها عند تشكيل التجربة ، ان رؤيته (الشاملة) للواقع تجعله يلمس شعث ما تبشر ويؤلف بين ما نأرق ، مبصرا المحور الاساسي لازمة (الانسان) في مجتمعه . من هنا فان تجربته وان كانت تجربة (الذات) المفردة - خاصة في مجال الشعر الغنائي - فان الذات هنا ، ليست هي الذات المريضة (المنسلخة) عن واقعها العام ، انما هي الذات (الملتحمة) بضمير الجماعة . من هنا يخرج الفن من اطار (المحتمل) الى اطار (الممكن) كما يقول « ارسطو » . وتصبح تجربة (الذات) تجربة انسانية عامة . وهذا ما نحسه في قصيدة السياب ، اذ تعبر - بصدق - عن انسان العصر الحديث المتغرب :

بين الميرون الاجنبية
بين احتقار وانتهاز .. او « خطية »
والموت أهون من خطية
من ذلك الاشفاق تعصره العيون الاجنبية
قطرات ماء .. معدنية
فلتنظفي يا انت ، يا قطرات ، يا دم ، يا .. نقود
يا ربح .. يا ربح .. يا ابرا تخيط لي الشراع - متى اعود
الى العراق ؟ متى اعود

نستطيع القول اذن : انه من خلال انصهار (الانا) - (بالنحن) واتحاد (الذات) ب (الموضوع) لا تعبر التجربة عن واقعها (المحلي) فحسب ، بل تعبر عن واقع (انساني عام) ، لان الادب لا يصيح (عالميا) الا اذا كان مخضبا بسمات (الواقع الخاص) الذي يعبر عنه .

الرحلة الثانية :

التي تمكن المتدق من ان يقيم النص الادبي ، وان يقدر جهد الاديب فتيبا ، هي ان ينظر الى (النص) على انه مرحلة او حلقة في تاريخ نوع بعينه له سمات خاصة (مميزة) استقرت في الوجدان الادبي والضمير الفكري للامة المبدعة له تحت ظل اطار حضاري خاص وهيمنة ثقافة مهيمنة .

والنص - هنا - قصيدة شعرية ، والشعر من اهم الفنون واضخمها سعة في التراث العربي . ذلك التراث (الادبي العربي) الذي يعد من اعرق الفنون واطولها عمرا ، واكثرها امتدادا في

تاريخ الحضارة الانسانية ، ومعروف ان القصيدة العربية حافظت من حيث الشكل الفني على اطار لم تكدر ترحه - خاصة في الادب الفصيح - لكن في نهاية النصف الثاني من هذا القرن هجر بعض الشعراء - والسياب في مقدمتهم - الشعر العمودي (التقليدي) الى الشعر الجديد (الحر) من هنا بدأت القصيدة تتخذ (شكلا جديدا) . وينبغي ان نعرف ان (ميلاد شكل جديد للادب لا يأتي وافقا ومصادفة وانما نتيجة لتغير ظروف اجتماعية عامة تؤدي بالضرورة الى مضمون جديد وشكل مستحدث ، لذلك يذهب الناقد السويسري « كونراد فانر » الى ان : « الاشكال الجديدة لا تتخلق فجأة ، كما انها لا تطبق بهر سوسم ، ويصدق نفس الامر على المضمون الجديد . ولكن ينبغي ان يكون الامر واضحا : فالمضمون وليس الشكل هو الذي يتجدد في البداية دائما . المضمون هو الذي يولد الشكل وليس العكس ، المضمون يأتي اولاً لا من حيث الاهمية فحسب ، بل ومن حيث الزمن ايضا . وذلك ينطبق على الطبعة وعلى المجتمع وبالتالي على الفن. » (٤)

انطلاقاً من هذا نجد القصيدة عند السياب لم تعد تفصل بين الذات والموضوع او بين الحب والوطن ، ولم تعد الموسيقى الرتيبة المتهدئة في الازان التقليدية والقوافي المكررة اهم الروابط العضوية في القصيدة ، بل صارت الصورة الفنية العامة للقصيدة تستوعب بطريقة (تركيبية) متلاحمة كل عناصر الفن الشعري : صوتية كانت ام تصويرية .

والجزء التالي من القصيدة يوضح كيف ان المضمون الجديد الجيد - الموقف الفكري الواعي - يؤدي بالضرورة الى (جيدة) في شكل القصيدة وبناء العبارة وتشكيل الصورة . نتيجة لهذا نحس ان القصيدة ذات علاقات تكبرية وخيالية جديدة باهرة ، وان الاسلوب فيه حيوية مدفقة ، من هنا نترك ان حيوية الاسلوب ليست بمعزل عن حيوية الافكار والمعاني ، وما وراء هذه الافكار والمعاني من انفعال عاطفي حيث التفاعل قائم بين الجانبين .

هذا ما نجده في هذا الجزء من القصيدة حين يرى انه على الرغم من شوقه - الى الحبيبة - فانه لن يفرح حين يلقاها الا اذا كان المنتقى على ارض الوطن .. يقول لها :

احببت فيك عراق روحي ، او حبيبتك انت في
يا انتما - مصباح روحي انتما - واتي المساء
والليل اطبق فلتشعما في دجاء فلا آتية
لو جئت في البلد الغريب الي ما كهل اللقاء
الملتقى بك والعراق على يدي .. هو اللقاء
شوق يخض دمي اليه كان كل دمي اشتهاه
جوع اليه .. كجوع دم الفريق الى الهواء
شوق الجنين اذا اشرب من الجنين الى الولادة
اني لاعجب : كيف يمكن ان يخون الخائسون
ايخون انسان بلاده ؟
ان خان معنى ان يكون .. فكيف يمكن ان يكون !

الرحلة الثالثة :

تتمثل بمحاولة ادراك التميز او (الفرد) الذاتي للاديب . ان ما يعيننا ونحن ندرس الادب - الا نقوص في التاريخ الملل لحياة الاديب او عصره او تحليل نفسيته او معرفة نواذره او علاقاته - فهذه امور صارت توجب الرثاء لمن يلتزم بها في تاريخ الادب او شرح النص . يجب على دارس الادب ومنتوقه - على السواء - ان يحيى معنى دراسة الادب من حيث كونه فنا مميذا له (طبيعة خاصة) لدى كل اديب (على حدة) ، وان تشابه الجميع بالضرورة في الطابع العام . تمييز الادب - الفن اللغوي - يكون لدى كل مبدع بنوع من (التفرد الخاص) في

شيئين : الاول : بطريقة (الاداء اللغوي) للعبارة ، أي كيف ينسبى الجملة لغويا . ان (اللغة) هي المادة الاساسية المشكلة لوجودنا الثقافي والحضاري ، وبالضرورة هي الاساس ايضا في عملية الابداع الفني . لذلك فإن نثر اديب طريقة خاصة في استخدام الكلمة وتركيب الجملة من حيث (النحو البلاغي) . ان الاديب لا يركب (الجملة) ليعبر بها عن معنى تقريرى ماأوف ، وانما يتعامل مع اللغة بطريقة نغز فيها (خواص التعبير الاديبي) ، وتجعل للعبارة والانساق والجمال قوة تتعدى الدلالة المباشرة ، وتنقل (الاصل) الى (المجاز) لتفي بحاجة الفن من التعبير والتصوير . وهنا نود ان نؤكد ان انفتاح الفنون على بعضها وتفاعلها بالتأثير والتأثر هد اثرى (الكلمة) : منطوقة ومكتوبة ، واعطاها قوة لم تهمد لها من قبل .

ويجب ان نذكر ان (التركيب اللغوي) للادب هو (المادة الحقيقية) المشكلة لفن الادب ، لهذا ينبغي بذل جهد كبير في التعرف على (كيفية) استخدام الاديب للغة . ويحاول (البنائيون) بذل جهد احصائي من أجل تحليل (البنية) في الظواهر اللغوية وتتبع طرائق التعامل مع الالفاظ .

وانجزء التالي - من قصيدة السياب - يبين قدرة الشاعر في استخدام اللغة (شيئا) وكيف يفجر (بطريقة) تعامله معها صورته التي تترجم - بصدق وفنية - عن مشاعره ، على الرغم من كونه يتعامل ب (قاموس) مالوف للكلمة ...

صوت تفجر في فرازة نفسي التكلي : عراق

كالمند يصعد ، كالمسحابة ، كالموع الى العيون

الريح يصرخ بي : عراق

والوج يعول بي : عراق ، عراق ، ليس سوى

عراق

البحر اوسع ما يكون وابت ابعده ما يكون

والبحر دونك يا عراق .

الثاني : يمكن ايضا ان نصل الى معرفة (التفرّد) الذاتي للاديب بشيء آخر نابع لما سبق - لطريقة استخدامه للغة - وذلك بمحاولة التعرف على طبيعة (التخيل) عنده ومصادره ، أي كيف يقيم بالعلاقات اللغوية (صوره) ، بحيث تكشف عن عناصر الشبه بين الأشياء التي لا صلة بينها في الواقع ، فيكشف عن خيال خصب خلاق يمدع من الفكرة والصورة تجربة (مكتملة) ، لذلك فإن أفكار الشاعر وصوره (الجزئية) يجب ان تتصافر وان تتلاحم لتخلق الصورة (العامة) للقصيدة في تمامها وكمالها ، ذلك ان الاديب قد يستخدم بعض عناصر الخيال المفردة بحيث تبدو كل منها حية نابضة في نفسها ، الا انها تكون في (مجموعها) صورة مشوهة او غير متلاحمة .

ومن يتأمل قصيدة السياب (غريب على الخليج) يجد ان العنوان يضع يدي المتأمل على مصادر الخيال عنده - التي تبدو كما لو كانت نتيجة منطقية لموضوعها ، اذ يدور الخيال - في مجمله - حول ما يشير اليه العنوان من معاني : الغربة ، والمياه ، والخليج . والمنقطع الاول من القصيدة يعبر عن صدق هذه المقولة :

الريح تلهث بالهجرة كالجثام على الاصيل

وعلى الفلوع تظل تطوي او تنشر للرحيل

زحم الخليج بهن مكتدون جو ابو بحار

من كل حاف نصف عاري

وعلى الرمال على الخليج

جلس الفريب يسرح البصر الحيتّر في الخليج

ونسطيع بصفة عامة القول بان الخيال عند السياب عامة - وفي

هذه القصيدة خاصة - خيال (تركيبى درامى) اذ هو لا يكتفى بتشبيه واحد في الصورة ، وانما نحس ان الصورة عنده ثرية الخيال فيها حركة وحية . قد يخلف قراء السياب في تأويل الرمز عنده او فهم الصورة ، ولكن الاحساس الصادق بحيوية الخيال وصدقته يبقى سمة مميزة لفن السياب .

شيء آخر نشير اليه - في هذا الموضوع - هو ان الوزن الموسيقي في القصيدة خاضع للمعنى الذي قصد اليه الشاعر وللوزن الفنية المخالفة التي يتطلبها الفكر والاحساس في مضمونه . بهذا كله تظل للشعر الفئاني فوته ما دام يقدم لنا من خلال صوته الخاص رؤية واعية بمحاور الصراع الحقيقي للانسان والفن المعبر عنه .

المرحلة الرابعة :

نابعة من ايمان بان الادب له دور في بناء المجتمعات والبشر. ان الادب نشاط انساني يسهم في حركة المجتمع وتقدمه ، من هنا لا يكتب للتسلية والترفيه او للمتعة والتطهير ، وانما من اجل ان يبرز - بالدرجة الاولى - (رؤية) خاصة للاديب ، وان يحدد (موقفا) يلتزم به .

لقد اصبحت (السلبية) امرا مرفوضا في الحياة ، وبالتالي في الفن المعبر عنها : ابداعا وتوقفا . ان المتذوق للادب عليه ان يجهد نفسه لا لمعرفة التجربة الادبية وفهمها فحسب ، بل عليه ان يحاول ان (يبصر) ماذا يريد الاديب ان يقول - بالفن - . ان القارئ مطالب - فيما نرى - الا يجادل النص (جماليا) فحسب ، بل (فكريا) أيضا ، من حيث خصوصية التجربة التي يتلقاها والموقف الفكري الذي تفسح عنه ، بحيث يتخذ هو الآخر من التجربة موقفا فيحكم لها او عليها . وهنا يصبح الفن بجوار ما له من (خاصية فنية) ومتعة جمالية وسيلة بناء وطلقة تحرير وطريقا للتخلص من كل ما يؤدي الى غربة الانسان من اجل الانسان اسعد وحية افضل .

على هذا النحو فيما ارى - باختصار - يصبح التذوق الفني للادب عملية منضبطة ، تساعد على تحديد اسس دراسة النص وتذوقه . وهذه المنهجية في التذوق تساعد كثيرا في (ضبط) المنهج النقدي لفهم الادب وتقييمه ومحاولة الاستفادة بما يقدمه من خيرات وتجارب تمكن القارئ من الوعي بذاته وبمجتمعه . أي بما هو انساني فيه .

كلية الاداب - جامعة القاهرة

المراجع :

- (١) ادب الفلاحين : جمع احمد شوقي عبدالحكيم ط . القاهرة (الاولى) - ١٩٥٧ - دار النشر المتحدة ص ٧٩
- (٢) العجوز والبحر : ارنست همنجواي - تعريب : صالح جودت ط . القاهرة (د.ت.) - الدار القومية للطباعة والنشر ص ١١١
- (٣) قصائد بدر شاكر السياب : جمع واختيار : ادونيس ط . بيروت (الاولى) - ١٩٦٧ - دار الاداب ص ٧٤
- (٤) ضرورة الفن : ارنست فيشر - ترجمة : اسعد حليم ط . القاهرة (١٩٧١) - الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ص ١٨٩ .